



الأديب و المَفَكِّرُ الرَّاجِلُ رَمَضانُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَأَوْنَدَ

❖ مواقف تاريخية حاسمة ❖

رد الفعل أو النكسة بعد عمر بن عبد العزيز



واختفت الظاهرة الاستثنائية في تاريخ الخلافة الأموية. لقد مات عمر بن عبد العزيز. ولا فرق بين أن يكون موته بالسم أو بأي سبب طبيعي غيره. المهم أن عمر بن عبد العزيز كان في خلافته شوكة في حلوق الناس ولا سيما أولئك الذين كانوا قد جعلوا من الدولة بقرة حلوبا. أو جعلوا من السلطان وسيلة لغضب المال والبحث عن اللذات.

ولعلنا نذكر ما سبق أن قرناه من قبل وهو أن الصراعات التي تسيل الدماء على جوانبها قد تكون الحافز الأساسي الأول للبحث عن المتع بكل أشكالها. ذلك لأن البحث عن المتع هو تعبير عن الرغبة العميقة في الهروب لا من الواقع وحسب بل من النفس أيضاً.

فبينما كان عمر بن عبد العزيز في طمأنينة نفسه وصدق يقينه وتنزّهه عن الدنيا وهيمنته على شهواتها قادراً على الصمود أمام اغراءات السلطان ومزالقه، كان غيره من أمراء الأمويين وكبار المنتفعين من النظام القائم، والمغامرين من الانتهازيين الذين كانوا يستغلون غربة المجتمعات في المناطق الشرقية عن عالم العرب وتراثهم وأجدادهم، وغربة المجتمعات في الجزيرة العربية عن عالم حضارة انتشرت فيها أفكار دخيلة وانتشرت فيها أسباب اللذات، كان هؤلاء جميعاً على اختلاف الحوافز عندهم يضيّقون ذرعاً بطمأنينة الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز، وبجدّيته في التمسك بأخلاق السلف الصالح الذي لم يبعد به عهد الناس كثيراً.

والجدير بالذكر أن خلافة عمر كانت ثقيلة الحمل، غريبة المعالم، وأكبر من أن تحتويها نفوس أقبلت على الدنيا وتوزعتها شهوات الحكم، وشاع فيها الخوف مما ينطوي عليه مستقبل الأيام.

ولما كان لكل فعل رد فعل مساو له في القوة ومضاد له في اتجاهه، ولما كان فعل الخلافة العمرية أقوى في عصره من فعل خلافة الشيخين أبي بكر وعمر لتقارب المستويات بين الحاكم والمحكومين في أيام هذين الشيخين على عكس ما كان جارياً أيام الأمويين، فقد كان من الطبيعي أن يكون رد الفعل بعد خلافة ابن عبد العزيز مساوياً في اتجاهه المضاد. وهذه حقيقة علمية معروفة في أيامنا عند علماء الفيزياء والميكانيكا. وليست نظرية الطيران النفاث غير تطبيق عملي لها.

نقصد من ذلك إلى تقرير أنّ النكسة التي عقبها وفاة عمر بن عبد العزيز رحمه الله كانت أبلغ في تصوير الانهيار النفسي عند الفئات التي حرمتها خلافة هذا الخليفة الراشد من الاستمتاع بمتاع الحياة الدنيا وبالانجراف أمام سحر السلطان وإغراءات الثروة.

والواقع أنّ الخليفة يزيد بن عبد الملك الذي خلف على سدة الحكم عمر بن عبد العزيز قد راح يعبّ من شهوات الدنيا ما وسعه ذلك وساعدته عليه ظروف الملك. وإذا كان يزيد قد حاول قدر المستطاع أن يخفف من حب النفس الأمانة بالسوء والفحشاء فلا أنّ الاغراق الفاضح في التظاهر بحب الشهوات يفارق بطريقة فاضحة ما كان عليه الخليفة التقي السابق من الزهادة في الدنيا والمراقبة لربه عز وجل. لكنّ يزيداً رغم ذلك فتح الباب أمام النفوس الباحثة عن شهوات الدنيا وزينتها. فإذا انتهى عهد خلافته كانت ذكرى الخليفة الصالح قد بهتت رسومها ونصلت ألوانها فجاء من بعده الوليد بن يزيد الذي جاوز أباه في خلع عذاب الحياة والاقبال على الشهوات. والواقع أن هذا الوليد قد وجد فيمن حوله من يشجعه على التهتك الخليل وتحدي البقية الباقية من تقاليد الاعتدال والحفاظ على مهابة السلطان.

والواقع أيضاً أنّ تهتك الرجل العادي يبقى ظاهرة حبيسة في شخصه وفي القليل ممّن حوله من رفاق السوء. أمّا تهتك صاحب السلطان ولا سيما سلطان بحجم امبراطورية واسعة، تكون كلمته هي القانون، فهو فضيحة الفضائح، ذلك لأنّ من حوله ودونه من الناس لا يلبثون أن يقتدوا به، لا لأنّه يجاوزهم في ضعفه أمام الشهوات بل لأنّ له من سلطانه ما يفتح الباب واسعاً أمام الشهوات المكبوتة، والنزوات المترددة في الظهور علناً ودون استحياء.

ولا عجب في أن يكون الوليد بن يزيد ماجناً خليعاً فقد قضى سنوات الصبا والحدائث في بلاط الشام حيث توفرت له فيها كل المغريات وتيسرت له كل أسباب الترف. فكان فيها يفوز بكل ما يشتهي لا يجد من يرده عنه ويذكره بواجبه أمام الله والناس. هكذا نشأ ميالاً إلى اللهو مدمناً على الشراب. عقدت له مجالس الغناء والشراب واشترك في احياء هذه المجالس رجال ونساء لا يستترون في مجانتهم من الناس.

وفي وسعنا أن نتصور واقع الحال في أيام الوليد ومن قبله في أيام أبيه يزيد اذا تذكرنا قول القائل وهو يصف العلاقة بينهما:

الابن ينشأ على ما كان والده

إنّ العروق عليها ينبت الشجر

أما أشهر العازفين والمغنين والملهين الذين كانوا يحيطون بالوليد بخاصة فهم: معبد وابن سريج والغريض وابن عائشة وابن محرز وطويس من المغنيين والعازفين ثم حباة وسلامة من المغنيات والعازفات. هؤلاء كانوا بطانته ومن خلالهم كان يتعامل مع السلطان. يضاف إلى ما سبق أنّ هذا الخليفة الذي يجسّد قمة التهتك في مقابل قمة التقوى والتمسك عند عمر بن عبد العزيز كان شاعراً لم يتردد في تصوير مغامراته الغرامية في شعر جمع من بعد في ديوان منسوب إليه.

وقد بلغ من استهتاره كما روى الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني أنّه هام حباً بسلمى بنت سعيد التي ينتهي نسبها إلى عثمان بن عفان. وكانت سلمى هذه اخت زوجته سعد فلم يتردد في تطليق زوجته على أمل أن يتزوج سلمى لكن حساب الحقل عنده لم يطابق حساب البيدر، أي أنه لم يوفق إلى التزوج منها. وقد قال في سلمى شعراً كثيراً غنى به المغنون من مثل :

ولا غسل بألبان اللقاح

فما مسك يعل بزنجبيل

ولا ما في الزقاق من القراح

بأشهى من مجاجة ريق سلمى

هذا وقد غنت المغنية فريدة بأبيات قالها في سلمى نفسها جاء فيها:

لعناها ما عناني

ويح سلمى لو تراني

أما الرجال الذين كانوا ينادونه في مجالس الشراب والغناء فإنهم بطبيعة الحال من ذوي النفوس الضعيفة والشهوات الهابطة. نذكر منهم شراعة بن زيد الذي كان كما يقال صاحب عشرة حسنة ومفاكهة حلوة ومجالسة مؤنسة.

وقد جرى بين الوليد وبينه الحوار التالي:

- ما تقول في الماء يا شراعة؟
 - يشاركني فيه البغل والحمار.
 - وما تقول في نبيذ الزبيب؟
 - خمار وأذى.
 - وما تقول في الخمر؟
 - شقيقة روعي وأليفة نفسي.
 - وما تقول في السماع؟
 - يبعث مع التأني على ذكر الأشجان ويجدد اللهو على مواقع الأحزان يؤنس الخلي الوحيد ويسر العاشق الفريد.
- هكذا يتبين لنا أن موضوع الحوار في مجالسه هو الغناء والخمر وليس بعدهما غير ذكر الجميلات من النساء.

والجدير بالذكر أن الخلافة قد انتقلت إليه بعد عمه هشام بن عبد الملك. ومما يروى أنه لما أتاه نعي عمه في الرصافة ونقل إليه خاتم الخلافة غلبه السرور فجمع الملهين وشرب حتى ثمل وراح ينشد:-

طاب يومي ولد شرب السلافة إذ أتانا نعي من بالرصافة

وأتانا البريد ينعي هشاماً وأتانا بخاتم للخلافة

فاصطحبنا بخرم عانق صرفا ولهونا بقينة عزافة

وهذا هو يقول أيضا أمام رجال بطانته وجمع من الأمراء والكبراء: -

إنني أشتهي السماع وشرب الكأس والعض للخدود الملاح

والنديم الكريم والخدام الفاره يسعى عليّ بالأقداح

ونحن لا نشك في أن الرواة والأخبار قد تقوّلوا عليه ما لم يقل في بعض الأوقات ونسبوا إليه وقائع نستبعد صدورها عنه. من مثل ما يقال من أنه حمل إحدى جواريه على الصلاة بالناس والقيام في المصلّى مقام الامام الورع التقى، ومن مثل ما ذكر من أنه قد مزق المصحف الكريم.

كما يروى أيضا أن نصر بن سيار، وكان واليا على خراسان كتب إليه والى جمع من الأمراء الامويين يحذرهم ويخوفهم من ظهور بوادر ثورة في خراسان فأجابه الوليد:

" لقد أقطعتك خراسان فاعمل فيها لنفسك أو دع، فإني مشغول عنك بابت سريح ومعبد والغريض "

الواقع أنّ هذه الأخبار تجاوز الخيال في تقديرنا. ولا شك أن الخصومات السياسية كانت من وراء اشاعتها. وهي وإن لم تكن صحيحة على الغالب فإنّ تكذيبها لا يقلل من خطورة التسبب في حكم هذا الخليفة. والمصير المأساوي الذي انتهى إليه بقتله في قرية البخراء الشامية بعد عام وثلاثة أشهر من توليه شؤون الحكم كان النتيجة الحتمية المرتقبة لسلوكه الذي أخرج به من حوله من الأمراء والكبراء فأغضبهم ودفعهم إلى التخلص منه.

وخلص القول: أن سلوك الوليد بن يزيد كان ارهاصاً باقتراب نهاية العهد الأموي. العهد الذي انهكته الاضطرابات السياسية والمعارك الداخلية الدامية فأصبحت الحاجة ماسة إلى قيادة جديدة في قطر جديد لا يزال يتمتع ببعض القوة وبالقدرة على الامساك بزمام الأمور. ومهما قيل في شجاعة مروان بن محمد آخر خليفة أموي وفي حزمه ورباطة جأشه فإن سير الأحداث وما رافقه من الاضطرابات والفساد والاستنزاف أقوى بكثير من أن توقفه شجاعة رجل أو عدة رجال. فسقط مروان بن محمد وسقط معه النظام الأموي لأن الفرد الواحد أو الأفراد القليلين لا يستطيعون أن يوقفوا المد التاريخي وقانون المداولة بين الأقطار والشعوب.

فالحاكم لا يقاتل بشخصه بل بالطبقات المحيطة به والمجتمع الذي يعاصره. فهؤلاء هم الذين يصنعون التاريخ الحقيقي ويقررون بسلوكهم مصائر الدول.